الفصل الثاني عشر

قال الشيخ :

ـ لقد أفاق الإنسان الكامل إذن من بين الناس النيام . ففي باطن الكهف لا يوجد إلا جسم كلي ونفس كلية . وإذا ما قرأت تفسير القرآن الذي اختلف في مؤلفه ، فالبعض قال إنه إبن عربي ، والبعض الآخر قال إنه القاشاني أما أنا شخصياً فأجد مطابقة تامة لأفكار الشيخ الأكبر كما وردت في الفتوحات والفصوص والتنزلات الموصلية والشجرة السفيانية وبين ما ورد في كتاب التفسير . والمهم أنك لا تجد في هذا التفسير إلا صورة جامعة للإنسان الكبير أو الكلي الذي هو مخلوق على صورة الرحمن . ففي الوسع القول هنا إن المرايا الكثيرة هي في الحقيقة مرآة واحدة تقف بإزاء الوجه الأحدي تعكس كل قوى هذا الوجه المبطنة ، والمرآة خيال ، وكل ما فيها خيال ، والموجود كله خيال فلا وجود إلا له هو .

وإليك هذه الرؤيا التي رأيتها . . رأيتني في غرفة أقف أمام والدي واسمه إبراهيم ، ومعي ولدي واسمه إبراهيم أيضاً ، وكان أبي يعنفني لأنني خرجت إلى الصيد فأصبت عيني بالضرر ، وهنا جعلت أجأر بالشكوى قائلاً لأبي : أولاً أنا لم أكن الصياد بل ولدي ، ثانياً إن مابي من ضرر في عيني لا علاقة له بالصيد ، ثالثاً لقد بلغت الخمسين من عمري وأنت ما زلت لا تعترف بوجودي ولا تقيم

لي وزناً ، والله أعلم كم أعاني من جراء هذا النكران .

وتعبير الرؤ يا واضح ، فوالدي إبراهيم هو جد ولدي إبراهيم ، وإبراهيم نبي التوحيد ، فهو أول من هجر الشمس والقمر والنجوم التي قال عنها الغزالي إنها رموز لأنوار ، ويمّم وجهه شطر الواحد الأحد القائم وراء الأنوار . وإبراهيم خليل الله ، فالله اختاره فتخلله ، وإبراهيم الحفيد صورة من إبراهيم الجد ، فهو يحمل إسمه ، وإسم بلا مسمى لا معنى له في غير حدود أسماء الأعلام . فإبراهيم الصغير هو إبراهيم الكبير ظهوراً . وإبراهيم موحد ، ولقد نفى وجود الشمس والقمر والكواكب بعد أن اكتشف وجود الواحد الأحد ، والشمس والقمر والكواكب أنوار كما قلنا ، وقلنا أن لا وجود للأنوار إلا بالنور الشريف . إذن لقد عرف إبراهيم الصورة حقيقة الفاعل الواحدي فحطم من ثم تماثيل الصور أو قل مُثُل أفلاطون ، ولما سألوه عن سبب تحطيمه الأصنام انكر وقال إن كبير الأصنام هو الذي فعل هذا .

وواضح أن المثال غير فاعل ولا وجود له إلا بالوجود الأصيل ، فإبراهيم الصغير هو إبراهيم الكبير فاعلاً ، ولهذا انكرت أن أكون أنا الواسطة بين إبراهيم الكبير وإبراهيم الصغير ، أنكرت أن أكون فاعلاً في عملية الصيد . أما ما أصاب عيني من ضرر فهنا إشارة إلى ما ورد في قصة إبراهيم نفسها عندما قال إن كبير الأصنام هو الذي حطم الأصنام . فللإنسان عينان ، وعند حدوث الكشف ينكشف أن لاعين للوجود إلا العين الأحدية ، ولهذا أصاب عيني الضرر ، فبقيت بعين واحدة التي هي إنسان عين الإنسان ، فإنسان العينين واحد هو عين كل إنسان ، وهذه العين هي الفاعلة من خلال إبراهيم الذي تخلله الله . وشكواي من أبي أنه أنكر وجودي رغم بلوغي الخمسين من عمري فهذا حال المستيقظ من أهل الكهف حين يرى نفسه فانياً في الله وما بقي له من فعله وصفته إلا التقلب وهو نائم على أرض الوجود في كهف البدن بين يمين الصفات ويسارها حتى ينتبه من نومه طويل الشعر والأظافر إشارة إلى بلوغ كمال القوى العقلية .

والمراد الداخل الخلوة يعيش هذا الفناء كشفاً يابني . أنا عشته لما أدخلت

مقام النكاح ، وهو الصلة بين الفاعل والمنفعل . لقد نكحت خيال الصورة في عالم الخيال بلذة عظيمة كاللذة التي نكح بها إبن عربي النجوم والحروف ، وبينا أنا في النكاح قال الصوت : أنا فوق ، أنا تحت ، أنا الجهة ، أنا الجهات . فلما أفقت من لذتي بدأت أفكر في هذا الكشف العجيب . فلقد كنت أنا الناكح ، وكانت الصورة الخيالية منكوحة فإذا الصوت ينكر أن أكون أنا الناكح والصورة المنكوحة ، وقال إنه هو الفاعل والمنفعل . وهكذا وجدتني غريباً في بدني الذي لم يعد بدني والذي كان يتحرك بإرادة بدني ، في حين حصلت لي اللذة المطلوبة وأنا ساكن في متحرك كوني كبير .

جعلت أبذل جهدي لأستوعب هذا الكلام العجيب الذي تدفق كرصاص مدفع رشاش . وكما قلت فلقد كانت تعتورني حالات متناقضة من المشاعر وأنا أصغي إلى الشيخ . . وقلت إنني كنت أجدني أحياناً أستوعب كلامه بسهولة وألاحق هذا السيل المتدفق من الألفاظ وكأنني صياد وضع الطير في مرمى البندقية ولاحقت ذراعاه طيران الطير بخفة ، إلا أنني كنت أجدني في أحيان أخر قد ضاع مني الخيط الرفيع فإذا بالطير قد أفلت مني ، وإذا كلمات الشيخ تنهال علي كضربات مطارق . لقد قلت له بصوت ينضح رجاء :

ـ سيدي كيف يكون الإنسان ناكحاً ثم لا يكون ناكحاً ، أي كما قلت ، ومن هو الإنسان إذن ؟

أجاب بثقته اللامتناهية :

ـ هو الميت الحي ، الساكن المتحرك ، الحامل المحمول ، هو الموجود المفقود والظل السائر تحت الشمس . ألا تذكر حديثنا عن الجسم الكلي وكيف أبنت لك أن حواسك ليست أنت ، وأنها تعمل لك ، وأنك ضيف عليها . . ألم ننته من حديثنا إلى نتيجة فحواها أن الأجساد الجزئية تتحرك بفعل قوي الذر وأنها بالتالي جسم كروي كبير يتحرك حول مركزه . . وشرحت لك كيف يتحول الفكر إلى فعل بواسطة النور . اسمع هذه الرؤيا التي رأيتها : رأيتني أهبط من

حي المهاجرين في عربة مع رئيس الدولة مخترقين سهلاً للغوطة يوازي الأبنية . . ثم وجدتني في أزقة قديمة ضيقة جعلت جدرانها تقترب مني حتى كادت تلتصق ببعضها بعضاً وأنا بينها ، فقفزت إلى حافة حائط وحاولت النجاة فسقطت من حالق في بئر ولم أصب بأذى إلا أنني لم أكن قادراً على الإتيان بحركة . . ثم وجدتني في عيادة طبيب فحصني فحصاً شاملاً ثم زرقني بإبرة مقوية ثم جعل يطعمني ويسقيني وأنا واع كل ما يحدث من حولي . . أعي ما يقوله الطبيب وأعي وضعي وعجزي ، إلا أنني كنت غير قادر على تحريك اصبع من أصابعي . . ثم فتح الباب ودخل رجل يحمل خبزاً وضعه على صدري ، وكان الرجل يوزع الخبز زكاة عن ميت فغضبت وقلت أتظن أنني ميت ؟ لا ، أنا لست بميت . . ثم أقترب الطبيب مني ، وكان طيباً إلى أبعد الحدود ، فوضع في فمي لفافة جعلت أدخنها وأنفث دخانها .

وتعبير الرؤ يا هو أن هبوطي من المهاجرين هو هبوط من عالم الهوية والنور، ودل على هذا وجودي مع رئيس الدولة إشارة إلى العقل الكلي وركوبي العربة لا سيارة يدل على ركوبي عربة الجسم التي هي النفس الحيوانية وقواها ، ورمز إليها بالعربة والحصان . واختراقي سهل الغوطة بمحاذاة الأبنية كون الذات الإنسانية حداً وسطاً بين عالم الظاهر وعالم الباطن . . فالظاهر البناء والباطن السهل الأخضر والخضرة نور ، ووجودي في الأزقة القديمة وشعوري بالضيق حبس النفس داخل جدران الأسماء المتعينة المتضادة . ومحاولتي النجاة جهاد النفس الأكبر للخروج من حلبة صراع الأسماء . وسقوطي في البئر انتهائي إلى الكهف الذي أوى إليه الفتية كما ورد في القرآن ، فالبئر البدن . وانتقالي إلى عيادة الطبيب الذي جعل يطعمني ويسقيني وأنا عاجز فهذا أمر يكتنفه المراد حين يدخل الخلوة ويمر بمقام كشف الفعل الذي وصفته لك من خلال رفع الستار عن حقيقة النكاح المتمثل في الفاعل والمنفعل . ففي هذا المقام يتبين المراد مدى عجزه، ويجد نفسه في وضع النائم تقريباً، في حين أن جسمه يقوم بالنكاح من غير أن يكون له هو دور الفعل. والمقام دقيق الإشارة يا بني ، ولقد سبق أن تحدثت عن ضيق أفق العبارة عن اتساع الإشارة . وما

أدراك بوضع إنسان يقال له وهو ينكح أنه ليس ينكح ، وأن الذات هي التي تنكح ، وأنها لا تنكح إلا نفسها ، وأن الجسم ينفعل بفاعل ، وأن الفاعل هو على الحقيقة ، وأن هذه القوى والغرائز والعواطف ، وكل هذه الآلة المعقدة من الدماغ والعضلات والعظام والشرايين والدم والأجهزة والحواس ما كانت لتعمل لولا الله ، وأنها تتحرك لا بأمره بل بإنفعالها عنه ، وأنه هو الذي يخرج من الواحد ليدخل في الكثير ، وأنه يعود من الكثير ليظهر في الواحد ، وأن الكثرة منفية داخل الجسم الكلي ، وأن الجسم الكلي منفي داخل النفس الكلية ، وأن النفس الكلية منفية داخل النور ، وأن النور مشع من النقطة التي هي المبتدأ والمنتهى والمعاد .

وأخذ الشيخ نفساً عميقاً وعيناه ترمشان بشدة ، ثم تابع قائلاً :

- يشبه حال المراد ههنا حال الميت بالفعل ، فهو ميت حي إن صح القول ، ولهذا رأيت في الرؤيا أن الرجل الغريب يدخل ويضع خبزاً علي ظناً منه أني ميت إن صح القول .

وسألت الشيخ :

- قلت ياسيدي إنك مررت بمقام النكاح ، وقد كشف لك فيه أن الإنسان لا ينكح وأن الذات هي التي تنكح وأنها لا تنكح إلا نفسها وأن الجسم ينفعل فقط ، فما معنى مرورك بهذا المقام ؟

أجاب :

- الكشف كشفان يابني ، كشف اليقظة وكشف المنام ، وكشف اليقظة - كما قال الإمام الغزالي - يحتاج إلى تأويل ، أما كشف المنام فهو الذي يحتاج إلى تعبير . وأنا لما مررت بمقام النكاح عشت كشف اليقظة ، ويقول الغزالي إنه أتم وأقوى من كشف المنام .

قلت :

ـ ولكنك عودتني كشف المنام ياسيدي ، كشف الرؤى ، فهل رأيت رؤيا تؤيد هذا الكشف ؟

ـ طبعاً . . رأيتني ذات ليلة مضطجعاً وبجانبي اضطجع صديق لي إسمه عيسى الكاتب ، فالصديق يحمل إسمي ، وأحسست أن الصديق يريد أن ينكحني . وكان صديقي عظيم البنيان عريض الألواح ذا بسطة في الجسم . . فلما فرغ نهض ، وعندما نهض انقلب صديقي شقيقي واسمه فؤاد فغادر الغرفة ، في حين وجدت بجانبي امرأة اسمها نجلاء الداية فهممت بها لكنني استحييت ، وكانت يدي تمر بباطن فخذها فجعلتْ هي التي تنكحني في حين ظللت أنا مستلقياً ساكناً ثم نهضت وتوجهت إلى خزانة كتب . . وهنا عاد شقيقي فؤاد الذي جعل ينظر خلف الخزانة ويضحك لأن عورتي مكشوفة .

وتعبير الرؤيا ذو علاقة بكشف الفعل وهو غايتنا من بحثنا كله ولم نجد له من مثل يحققه سوى النكاح . فالصديق الذي كان مضطجعاً بجانبي هو الذي يريد أن ينكحني ، والصديق يحمل إسمي وتقول الصوفية الاسم غير المسمى ولكنه دلالة على المسمي ، ويقولون إن الأسماء وهي الصفات لا هي الذات ولا هي سواها ، هذا ما تقوله الأشعرية . فالأسم هنا ذات الذات أو فكر الفكر أو الهو وهو في الوقت نفسه الجسم الكلي ، ودل على هذا كون صديقي ذا هامة عظيمة وبسطة في الجسم . وانقلاب صديقي إلى شقيقي فؤاد ، والفؤاد الجانب من القلب الذي يشارف الروح ، فنحن هنا في حضرة الروح وهذا يؤيد تعبيرنا . ووجود المرأة التي اسمها نجلاء الداية فنجلاء صفة العين والداية فاعلة ، ولما كانت أنثى فهي في الوقت نفسه منفعلة ، ولما كنت أضع يدي على باطن فخذها فالتعبير هو أن الباطن هو الفاعل المنفعل . ولهذا السبب قال سلطان العارفين إن رسول الله أحب النكاح ووصلة النساء لأنه رأى شهود الفاعل في المنفعل ، وأن الله أمر بالغسل بعد النكاح لكي يبرأ العبد من كونه فاعلاً ومنفعلاً . . ولهذا قلنا إننا شاهدنا في مقام النكاح إن الذات هي التي تنكح نفسها وأننا نحن النيام ليس لنا إلا اللذة . . ودل على هذا عودة أخي

ليراني قد اختبأت وراء خزانة الكتب ، والكتب إشارة إلى مقام الكشف ذاته الذي هو علم لَدُني فهناك تبين لي هذه الحقيقة الغيبية ، ومن هنا قالت الأشاعرة إن الفعل لله والكسب للعبد .

obeikandl.com